

الشيخ علي حسن غلوم

من هدي الزهراء

الشيخ
علي حسن غلوم

من هدي
عليه السلام
الزهراء



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

خليوي: ٩٦٤٧٨٠١٥٠٠٤٨٢+

ديباجة

دعماً للجهود المباركة التي بدأها السيد الأستاذ شفيق الموسوي - المركز الإسلامي الثقافى / النجف الأشرف - والهادفة لنشر فكر وثقافة أهل البيت «عليهم السلام» أثناء المسيرة المليونية لأربعينية الإمام الحسين «عليه السلام»، وذلك بإقامة معرض كتاب لمدرسة أهل البيت، تم إصدار سلسلة كتيبات لسماحة الشيخ علي حسن غلوم يعرض فيها أقوال ومواقف رسول الله والأئمة الإثنى عشر «عليهم أفضل الصلاة والسلام»، وقد أصدر هذا العام خمسة كتيبات، بدأ فيها برسول الله، وانتهى بالإمام الحسين، وضمّنها بعضاً من خطبة ومقالاته، على أن تكتمل السلسلة المباركة في الأعوام اللاحقة.

إننا إذ نقدّم هذا العمل، فإننا نأمل في أن يكون نموذجاً يُحتذى به لخدمة مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، وأن يكون موضع تنافس ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

المحتويات

- مقدمة ٧ -
- ١. إنا أعطيناك الزهراء ٩ -
- ٢. الزهراء عليها السلام في عليائها ١٢ -
- ٣. شجاعة الزهراء عليها السلام ١٥ -
- ٤. سُمّو الزهراء عليها السلام ٢١ -
- ٥. بيت ومحراب ٣٠ -
- ٦. المرأة في مسيرة النبوات ٣٤ -
- ٧. اعلّموا أنّي فاطمة ٣٩ -
- ٨. ثم ابتسمت فاطمة ٤٤ -
- ٩. رسالة إلى الزهراء عليها السلام ٤٩ -
- ١٠. معالم الشخصية المؤمنة في خطبة الزهراء ٥٢ -
- ١١. الزهراء عليها السلام وترّ في غمد ٥٧ -
- ١٢. المسؤولية في خطبة الزهراء عليها السلام ٦١ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،
والصلاة والسلام على حبيب قلوب العالمين سيدنا ونبينا
محمد وعلى آله الطيبين الميامين.

بين يديك مختارات من خطب ومقالات تم تقديمها من
قبل سماحة الشيخ علي حسن غلوم، إمام مسجد سيد هاشم
بهبهاني في الكويت، وعلى مدى سنوات، ونعيد تقديمها تحت
عنوان: من هدي الزهراء «عليها السلام»، وتأتي ضمن
سلسلة تصدر حول هدي النبي وآله «عليهم السلام»، ومقسّمة
على أجزاء تم إعدادها وإخراجها بصورة تتناسب مع الهدف
منها، وهو تقديمها إلى الجماهير المليونية المشاركة في
مسيرة الأربعين الحسينية، ليتسنى لهم مطالعتها والاستفادة
منها خلال رحلتهم سيراً على الأقدام، أملاً في أن نكون من
المساهمين في تحقيق غاية من غايات النهضة الحسينية على
صاحبها آلاف التحية والسلام، وهي إخراج الناس من ظلمات
الجهل إلى نور المعرفة، اهتداءً بكتاب الله، واقتداءً بسنة
رسول الله، وأتباعاً لهدي العترة المباركة.

اللجنة المشرفة

(١)

إنا أعطيناك الزهراء

قال «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ «آل عمران: ٣٧»

كانت الأمنية التي تعلق بها قلبُ امرأةِ عمران أن يرزقها الله الولد، لتجعله حُرّاً من أية سلطة بشرية.. ولتكون حياته خالصةً في خدمة الله.. وفي طريق الرسالة.. ولما رزقها الله بنتاً، بقيت تعيش الأمنية الروحية في أن تكون هذه البنت محررةً في خدمة الله.. في بيت الله..

واصطفّت لها من الأسماء مريم.. أي العابدة.. إمعاناً في تحقيق الهدف.. وسألت الله أن تكون هذه البنت، وأن يكون امتدادها في ذريتها بعيدين كل البعد عن وساوس الشيطان ومكره.

لتكون حركتهم خالصة في طاعة الله، من دون أي انحراف أو زلل.

وتقبل الله هذه الأمنية، واستجاب هذا الدعاء..

ورعاها بعينه التي لا تنام.. وجعلها في كفالة نبي زمانها.

وهكذا عاش النبي الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» في أجواء دعوته الخالصة لوجه الله أمنية الامتداد الزمني للرسالة في ذريته..

وواجه طعن الشائنين له بموت أبنائه الذكور.. مستهزئين بقولهم: أهكذا ترعاك يد الله، فيحرمك من الذرية؟

وهم يتطلعون بهذه الكلمات الساخرة، ومن خلال أحقادهم، أن تنتهي الرسالة بموته «صلى الله عليه وآله».

وتأتي البشارة من السماء.. ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾..
إنا أعطيناك الزهراء..

ليتحقق من خلالها..

وفي ذريتها.. الامتداد الرسالي..

بامتداد العبودية الخالصة لله..

وبصفاء الطهر في روحانيتها وتبطلها إلى الله.

وإذ نعرف أن فطم الحبل قطعه... فقد اصطفى لها رسول

اللَّهُ اسْمَ فاطمة.. التي تَقَطَّعُ عنها كُلَّ علائق الدنيا، وكلَّ صور
الرجس، لتُحَلَّقَ بعيداً في آفاق العبودية لله، ولتَسْمُوَ في طهارة
روحها عن كل دنس، وليُعِيذَها وذريَّتُها من الشيطان الرجيم،
وليتقبلها ربُّها بقبول حسن، ولينبتَّها في أحضان النبوة نباتاً
حسناً.

وكما نزلت سورة الكوثر لتردُّ كيد الشائئين.. ولتبعث اليأس
في نفوسهم من القضاء على الرسالة بموت رسول الله..

نزلت آية التطهير، لتؤيس الشيطان، وأولياء الشيطان، من
القضاء على الرسالة بالمكائد التي يريدون بها غواية هذه
الصفوة، أو حرفها عن الرسالة، لأنَّ الإرادة الإلهية قد شاءت
أن تذهب الرجس عن أهل هذا البيت وتطهِّرهم تطهيراً.

ومن أراد أن يكون في نهج فاطمة.. في عليائها.. وفي
طهرها.. فعليه أن يتعلَّم كيف يزيل الرجس من عقله، ومن
قلبه، ومن حياته.. أن يتعلَّم كيف يُطهِّر عقله من الباطل،
وقلبه من الحقد، وحياته من كل ما لا يُرضي الله، لأن ولايتها
في طاعة الله، ولأن التشيع لها لا يكون إلا في تقوى الله.

(٢)

الزهراء عليها السلام في عليائها

روى الترمذي في سننه من كتاب الفضائل عن حذيفة، قال:
(سَأَلْتَنِي أُمِّي مَتَى عَهْدُكَ؟ . تَعْنِي بِالنَّبِيِّ «صلى الله عليه وآله وسلم» . فَقُلْتُ: مَا لِي بِهِ عَهْدٌ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا . فَتَأَلَّتْ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهَا: دَعِينِي أَتِيَ النَّبِيَّ «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فَأُصَلِّيَ مَعَهُ الْمَغْرِبَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي وَلَكَ، فَاتَيْتُ النَّبِيَّ «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْمَغْرِبَ، فَصَلَّى حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ انْفَلَتَ فَتَبِعْتُهُ فَسَمِعَ صَوْتِي، فَقَالَ: مَنْ هَذَا، حَذِيفَةُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا حَاجَتُكَ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلَأُمِّكَ؟ قَالَ: إِنَّ هَذَا مَلَكٌ، لَمْ يَنْزَلِ الْأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، اسْتَأْذَنَ رَبُّهُ أَنْ يُسَلَّمَ عَلَيَّ، وَيُبَشِّرَنِي بِأَنْ فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنْ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) .

سألني أحد المؤمنين ما هذه القيمة العليا للزهراء «عليها السلام»؟ هل في الأمر مبالغة أم ماذا؟

فإننا لو استعرضنا كل ما روي لنا من سيرتها «عليها السلام» لما وجدنا سوى القليل من المواقف الموزعة على العهدين المكي

والمدني.. خاصة وأنها رحلت عن الدنيا في ريعان شبابها، ولم يسعفها الزمن.. فأنتى لها هذه المكانة العظيمة؟

والجواب باختصار شديد: هل لأحد إنكار مقام السيدة مريم بنت عمران «عليها السلام» وقد قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ «آل عمران: ٤٢».

فما الذي قدّمته مريم البتول كي تنال هذا التكريم الإلهي؟ ما هي مفردات سيرة هذه السيدة العظيمة؟

هل أسست جامعة دينية؟ هل أنشأت مؤسسات رعائية للأيتام؟ هل ألّفت موسوعة؟ هل استشهدت في موقف بطولي؟ كل ذلك لم يحصل.. ومع هذا نالت ذلك التكريم العظيم من الله.. لماذا؟

لأنها مسألة الطهارة الروحية، السمو الأخلاقي التقوى الخالصة التي تمتعت بها فكان عطاؤها نابعا من هذا الإخلاص ومحاطا بهذه الهالة القدسية.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى مولاتنا الزهراء «عليها السلام».. ففي سنن الترمذي، عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ «صلى الله عليه وآله وسلم» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيرًا ﴿١٠٨﴾ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وَعَلَى خَلْفَ ظَهْرِهِ فَجَلَّلَهُ بِكِسَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: وَأَنَا مَعَهُمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْتِ عَلَى مَكَانِكَ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ).

إذاً كما وجدنا عنوان الطهارة حاضراً في تكريم مريم البتول، نجده حاضراً في تكريم السيدة الزهراء.. الطهارة الروحية.. السمو الأخلاقي.. التقوى الخالصة.. هالة القداسة التي تحيط بحركات فاطمة وسكناتها، بعبادتها ودعوتها، بدعائها ومناجاتها، برعايتها لصاحب الرسالة أولاً، ثم لصاحب مقام الولاية والإمامة من بعده، لتربيتها سبطي النبي فكانا سيدي شباب أهل الجنة.

إن عطاء الإنسان لا يقاس بالزمن، ولا بكثرة الإنجازات، فقد يعيش الإنسان قرناً من الزمان، ولا يقدم شيئاً ذا قيمة.. وقد ينجز الكثير إلا أن إنجازاته لا بركة فيها ولا خير.. بينما قد يعيش عقدين من الزمان، أو دون ذلك فيخلد ما دامت الحياة. فلنسع أن نكون ممن تخلد ذكراهم في طهارة الروح وسمو الأخلاق وصلاح العمل، ولنا في الزهراء فاطمة في مقاماتها الشامخة التي نالتها الأسوة الحسنة والمثل الأعلى.

(٣)

شجاعة الزهراء عليها السلام

عُرِّفَت الشجاعة بأنها: (الجرأة والإقدام وشدة القلب عند الشدائد وبالتالي التغلب على رهبة الموقف) .. وحين نتحدّث عن الشجاعة فإننا لا نتحدّث عن ساحات القتال، فهناك شجاعة الكلمة، والشجاعة العلمية حيث تطرح قناعتك العلمية وإن خالفت الرأي المشهور، والشجاعة الأدبية حين تعتذر من خطأ ارتكبته، وشجاعة الموقف حين تكون منصفاً ولو من نفسك وأقربائك، وغير ذلك.

• عدة عناصر:

وبهذا المفهوم للشجاعة تتداخل عدة عناصر لتكون هذه الصورة.. الهدف المحرّك، والصبر والثبات، القوة النفسية التي تفعلّ القوة الجسدية.

وقد يتصوّر البعض أن الشجاعة تعني الانجرار وراء العاطفة، ولكن الحق أن تكامل صورة الشجاعة لا يتحقق إلا من خلال دور القوة العقلية التي توجّه القوة النفسية نحو الهدف وتضبط حركتها لئلا يتحول الإنسان من موقع

الشجاعة إلى موقع التهور أو العدوان والبغي أو غير ذلك.

• سيرة الزهراء:

وحين نعود الى سيرة الزهراء «عليها السلام» نجد الشجاعة بعناصرها ومقوماتها حاضرة في شخصيتها بكل وضوح، لاسيما في خطبتها التي واجهت بها المسلمين بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» مبيّنة لهم جملة من الحقائق.

وتتضح الصورة أكثر حين نسترجع حقيقة أنها وقفت ذلك الموقف الشجاع وهي في ريعان الشباب، وفي محضرها كل الأسماء الكبيرة بعناوينها من صحابة رسول الله، فلم يغير ذلك من موقفها شيئاً.

يقول الكاتب المصري توفيق أبو علم وكيل وزارة العدل الأسبق، والمسؤول عن حرم السيدة نفسية بمصر في كتابه «أهل البيت»: (أوتيت الزهراء «رضوان الله عليها» كسائر أهل البيت حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة. فكلامها متناسب الفقر، متشاكل الأطراف، تملك القلوب بمعانيه، وتجذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه، فهي في البيان من أغزر القوم مادة، وأطولهم باعاً وأمضاهم سليقة وأسرعهم خاطراً، وإنه ليتبين ذلك خاصة في خطبتها وكلامها في بيعة أبي بكر، وخلافها معه بشأن فدك).

• عناصر شجاعته:

أما الهدف من موقفها الشجاع فقد كان واضحاً وهو نصرته الحق المتمثل في موقف زوجها الإمام علي «عليه السلام».. وأما الصبر والثبات فقد كانا عنوان موقفها الذي ما تغير حتى ودّعت هذه الدنيا الفانية.. وأما القوة النفسية التي تفعل القوة الجسدية فقد تجلّت في شخصيتها، وانعكست في كلماتها.

ولو أخذنا المقطع التالي من خطبتها لبان لنا ذلك بوضوح قالت «عليها السلام»: (كُلُّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، أَوْ نَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَغَرَتْ فَاعِرَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكَفَى حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَهَا بِأَخْمَصِهِ، وَيُخَمِّدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللَّهِ، مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اللَّهِ، قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مُشْمِراً نَاصِحاً، مُجَداً كَادِحاً، وَأَنْتُمْ فِي رَفَاهِيَةِ مِنَ الْعَيْشِ، وَادْعُونَ فَاكْهُونَ آمَنُونَ).

• مبادئ راسخة:

ويضاف إلى ما سبق أنها لم تتخلّ عن قيمها ومبادئها وعفّتها وحيائها لتُقدّم على تلك الخطبة، بل كما ذكر النص أنها: (لَا تَتَّ خَمَارَهَا عَلَى رَأْسِهَا، وَاشْتَمَلَتْ بِجُلْبَابِهَا، وَأَقْبَلَتْ فِي لَمَةٍ مِنْ حَفَدَتِهَا وَنَسَاءِ قَوْمِهَا، تَطَأُ ذُيُولَهَا، مَا تَخْرُمُ

مَشِيَّتُهَا مَشِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ فِي حَشْدٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ فَنَيْطَتْ دُونَهَا مُلَاءَةً، فَجَلَسَتْ، ثُمَّ أَنْتَ أَنْتَ أَجْهَشَ الْقَوْمُ لَهَا بِالْبُكَاءِ. فَارْتَجَّ الْمَجْلِسُ. ثُمَّ أَمْهَلَتْ هَنِيئَةً حَتَّى إِذَا سَكَنَ نَشِيجُ الْقَوْمِ، وَهَدَأَتْ فُورَتَهُمْ، افْتَتَحَتِ الْكَلَامَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَعَادَ الْقَوْمُ فِي بُكَائِهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَكُوا عَادَتْ فِي كَلَامِهَا).

وفي هذا ردّ بليغ على الذين يعتبرون أن التزام المرأة الستر الشرعي سيعيقها عن أداء مسؤولياتها في الحياة، وعن اتخاذ المواقف الشجاعة في الظروف العصيبة.

• ملهمة النساء:

لقد كانت السيدة الزهراء «عليها السلام» بذلك، الملهمة لمن خلفها من النساء، إذ اقتدين بها في مواقف شبيهة واجهن بها الظلم والباطل بكل شجاعة.. في موقف العقيلة زينب عليها السلام في محفلي ابن زياد ويزيد.. وفي موقف الصحابية الجليلة أم الخير البارقي التي كانت تقف في وسط المقاتلين في صفين تهاجم خصوم الإمام عليٍّ بأعنف القول، وتحت من كان في جيش الإمام «عليه السلام» على نصرته قائلة: (أيها الناس إلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمِّ رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَزَوْج ابْنَتِهِ وَأَبِي ابْنِيهِ ١٩ .. هَا هُوَ مُفْلَقُ
الْهَامِ وَمُكْسَرُ الْأَصْنَامِ، إِذْ صَلَّى وَالنَّاسُ مُشْرِكُونَ، وَأَطَاعُ
وَالنَّاسُ مُرْتَابُونَ).

ولما أمر معاوية بعد استشهاد الإمام علي «عليه السلام»
بجلبها إليه، مذكراً إياها بكلامها في صفين خوَّفها بالقتل
فقالت: (والله، ما يسوءني يا ابن هند أن يُجري الله ذلك
على يد مَنْ يُسعدني الله بشقائه).

• الشهيدة بنت الهدى:

وهكذا ألهمت الزهراء «عليها السلام» في عصرنا هذا
الشهيدة بنت الهدى آمنة الصدر أخت الشهيد السعيد السيد
محمد باقر الصدر، التي عملت مع أخيها في النشاط الدعوي
من خلال الحوزة النسائية والتأليف، وثبتت معه في مواجهة
صدام وزمرة البعثيين، فحُبِسَتْ، فكانت بحسب شاهد عيان
تتلو قوله «تعالى» وهي تتلقى أصناف التعذيب: ﴿مَا يَفْتَحُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ «فاطر: ٢».. حتى إذا
أدخلت على المقبور صدام بدأت تتلو آيات من القرآن الكريم
مما أثار سخطه، فأمر بقتلها.

ولما كُشِفَ عنها بعد ذلك وُجِدَتْ آثار التعذيب وقد أحرق شعر
رأسها بشكل كامل، وظهرت بقع الحروق والجراحات العميقة

في جسدها.. ويضيف مساعد مدير الأمن السابق في النجف الأشرف: (حينما جاءوا بجثمان العلوية أخذني الفضول لأرى وجهها.. وما أن فتحت القناع حتى سرت في جسمي قشعريرة، ووقف شعر جسدي هيبة ورهبة مما جعلني أعيد القناع على ذلك الوجه الذي شعّ نوراً قتل به فضولي وشل يدي.. أحسست حينها أنها والله فاطمة أو زينب).

السلام عليك يا مولاتي يا سيدة نساء العالمين، السلام عليك يا مولاتي يا بنت خير البرية، السلام عليك يا مولاتي يا زوجة ولي الله، السلام عليك يا أم الحسن والحسين، السلام عليك أيتها الصديقة الشهيدة، السلام عليك أيتها المرضية المرضية، السلام عليك أيتها الفاضلة الزكية، السلام عليك أيتها التقية النقية، السلام عليك وعلى من سرّن معك في درب طاعة الرحمة، فلقين الله مؤمنات صالحات عفيفات طاهرات.

(٤)

سُمُو الزهراء عليها السلام

روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن علي «عليه السلام» أنه قال لرجل من بني سعد: (ألا أحدثك عني وعن فاطمة؟) وكأنه عليه السلام تذكر في تلك اللحظات أيام الزهراء في حالة من الاشتياق غزت قلبه (إنها كانت عندي وكانت من أحب أهله إليه، وإنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها) اخشوشنت من العمل في الأشياء الخشنة وظهرت فيها انتفاخات (وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً يكفيك حرماً أنت فيه من هذا العمل. فأنت النبي «صلى الله عليه وآله» فوجدت عنده حدثاً) قوماً يتحدثون (فاستحت فانصرفت، قال: فعلم النبي «صلى الله عليه وآله» أنها جاءت لحاجة، قال: فغدا علينا ونحن في لفاعنا، فقال: السلام عليكم. فسكتنا واستحيينا لمكاننا) ولا بد أن السكوت بمعنى عدم الرد بصوت مسموع، لا بمعنى

عدم الرد مطلقاً لأن رد السلام واجب أو أن ردّ سلام الإذن غير واجب كما ذكر العلامة المجلسي في تعليقه (ثم قال: السلام عليكم. فسكتنا، ثم قال: السلام عليكم. فخشنا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك، يسلم ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف. فقلت: وعليك السلام يا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ادخل. فلم يعد أن جلس عند رؤوسنا، فقال: يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس عند محمد؟ قال: فخشيت إن لم تجبه أن يقوم قال: فأخرجتُ رأسي فقلت: أنا والله أخبرك يا رسول الله، إنها استقت بالقربة حتى أثّر في صدرها، وجرت بالرحا حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها فقلت لها: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً يكفيك حرّاً ما أنت فيه من هذا العمل. قال «صلى الله عليه وآله»: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم؟ إذا أخذتما منامكما فاسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمداً ثلاثاً وثلاثين، وكبراً أربعاً وثلاثين، قال: فأخرجت عليه السلام رأسها فقالت: رضيت عن الله ورسوله، رضيت عن الله ورسوله، رضيت عن الله ورسوله).

• سيدة نساء العالمين:

ها هنا تسمو سيدتي.. سيدة نساء العالمين.. ثم تسمو.. ثم

تسمو.. حتى لا يلحقها أحد من النساء.. مشاهدٌ انفردت بها،
فأعجزت النساء قاطبة..

مشهدٌ حياتها في بيتها الذي يصفه زوجها عليه وعليها
السلام بكلمات بسيطة تحمل دلالات كبيرة: (استقت بالقربة
حتى أثر في صدرها)!!

يا نساء العالم .. تعالين واشهدن سيدتكن أجمعين ماذا
كانت تفعل.. ثم توارين خجلاً وحياءً وإكباراً.. ثم قلن كما
قالت صويحبات يوسف: ما هذا بشراً.. إن هذا إلا ملك كريم.
ومشهد آخر: حيث (طحنت بالرحى حتى مجلت يداها) ..

سيدتي.. أما كان أحدٌ يكفيك مؤونة ذلك؟! أم هي روح
رسول الله تجري في وجودك الزاكي، فأبيت إلا أن تتحملي
مسؤولياتك بنفسك مهما امتدت الأيدي لتعينك؟

ومشهد ثالث: حيث (وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها)،
ليس مرة أو مرات، ولكن هي هكذا باستمرار..

أسلوب طبيعي في حياتها الشريفة، تباشر كل أعمال البيت
الشاقة باستمرار!

ومشهد رابع إذ (أوقدت النار تحت القدر حتى دكنت
ثيابها) بكل ذلك الدخان المنبعث وبحرارة الموقد المتصاعدة..

وحين سألت أباها خادماً يحمل عنها بعض المشاق.. أبى.. لا

بُخْلًا عَلَيْهَا بخادم.. وقد عَزَّ عليه أن يراها وقد أَرَهَقَهَا حملها
الكبير.. وهي الزهراء.. وهي في زهرة أيامها..

ولكنه أراد لها ما هو خير.. لا كما نفكر نحن من خلال
معاييرنا المعوجة.. بل ما هو خير عند الله.. وما هو خير
بمنطق القرآن.. ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ «الكهف: ٤٦»..
فوجَّهها إلى التسبيح.. إلى التصعيد.. إلى السمو..

بُنَيَّة فاطمة.. إذا أُوَيْتِ إلى فراشك سَبِّحِي واحمدي
وكبَّرِي.. بعد كل ذلك العمل الشاق والإجهاد.. وقد أدَّبَنِي ربي
من قبل فأحسن تأديبي حيث خاطبني: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ
سَبْحًا طَوِيلًا﴾..

وهكذا أنت.. حبيبتي فاطمة.. إن لك في النهار سبْحاً
طويلاً.. عملاً شاقاً.. وجُهداً جهيداً.. يستنزف قوة الإنسان..
ويُسَلِّمه إلى التعب واليأس والتخلي عن مسؤولياته..

بُنَيَّة فاطمة.. أدَّبَنِي ربي أن ذلك السبح الطويل لا تقوِّمه إلا
تساييح الليل.. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾
تساييح تحمل للإنسان معناها الروحي.. وعطاءها العملي..

وإذا كان الليل هو زمن الصفاء والهدوء عندما تخلد كل
الموجودات الحيَّة للراحة، ويبسط الظلام ظلَّه على الأرض

ليمنحها الاستغراق في الاسترخاء الهادئ، فإن الكلمة عندما تتحرك فيه من بين الشفتين، تمثل العذوبة والحلاوة والروحانية والصفاء والنقاء التي تفتح النفس على الحقيقة، فلا يشوبها غموض ولا تعقيد، ولا يقترب منها الباطل.. فتكون أقوم في المعنى، وفي الجو وفي الحركة، لأنها لا تتطلق من بين الضجيج، بل تتحرك من عمق الهدوء الذي يمنح الفكر انطلاقه وعمقه وامتداده في الحياة.

وبين تلك الكلمات.. ومع كل تلك المعاني.. حلقت الزهراء في عليائها.. وسمت على كل ذلك الزخرف.. ونطقت نطقها الخالد: رضيت عن الله ورسوله.. رضيتُ عن الله ورسوله.. فارتفعت بذلك مرتين.. لتكون فوق النساء جميعاً.. إذ صدقت أباهاً.. ورضيت رضىً هو أكمل الرضى.. فما نطقها إلا الحق والحقيقة.. ومشهدٌ من مشاهد العلى..

• العمل بالوصية:

وحفظ الزوجان وصية النبي، ففي صحيح مسلم: (قال علي: ما تركته منذ سمعته من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم».. قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين). ولعل المقصود ليلة الهرير التي كانت أشد ليالي صفين قتالاً. وتوارث أهل البيت «عليهم السلام» تلك الوصية علماً

وعملاً، فعن الصادق «عليه السلام» أنه قال: (يا أبا هارون،
إننا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة «عليها السلام» كما نأمرهم
بالصلاة، فالزمه، فإنه لم يلزمه عبدٌ فشقي).

• عاطفة النبي:

وبين يدي حديث عن الإمام الباقر «عليه السلام»: (ما
عُبد الله بشئ من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة «عليه
السلام»، ولو كان شئ أفضل منه لنحله رسول الله «صلى
الله عليه وآله» فاطمة «عليها السلام»). وهذا يجرنا إلى
نقطة مهمة ونحن نتناول هذه المسألة، فلا شك أن النبي
كان يملك عاطفة قوية تجلّت في مواقف عديدة عند تعامله
مع المستضعفين والأطفال والعبيد وغير ذلك، وتجلّت هذه
العاطفة في تعامله مع أبنائه وأبنائهم بصورة أكبر.. وهذا شئ
طبيعي. ولكن من المهم أن ندرك أن هذه العاطفة الجياشة ما
كانت لتحرف النبي عن الاستقامة التي أمر بها حيث خوطب
من السماء: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ «هود: ١١٢»، على الرغم
من أن هذه العاطفة من القوة بحيث تجر الأب إلى التخلي عن
مبادئه طلباً لرضا أبنائه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا
اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَاعْلَمُوا
أَنْكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
«الأنفال: ٢٧-٢٨».. أي أن هذه المحبة قد تصل إلى مرتبة توقع

الإنسان في خيانة ما يؤمن به، فتهلكه وهو يحسب أنه يحسن صنعا!

• اختيار الأفضل:

بالطبع فإن طلب الخادم من النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكن ليمثل نوعاً من الخيانة في ما لو استجاب النبي للزهراء، لأنها كانت بحاجة فعلية لذلك، ولكن المسألة هي في عدم نزوله عند ضغط العاطفة حين صار بين خيارين، لأن الله «تعالى» يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ «الكهف: ٤٦».

فاختار لها الأفضل، لاسيما بلحاظ الظرف الذي كان يمرّ به المجتمع الإسلامي في المدينة آنذاك كما يتّضح لنا من الرواية التالية عن النبي «صلى الله عليه وآله» حيث قال: (يا فاطمة، والذي بعثني بالحق، إن في المسجد أربعمئة رجل ما لهم طعام وثياب، ولولا خشيتي لأعطيتك ما سألت). ولا يخفي حال أهل الصّفة من المهاجرين المعدّمين الذين آواهم النبي هناك. لقد كانت ردّة فعل النبي «صلى الله عليه وآله» من وحي المسؤولية تجاه المجتمع كحاكم، وإلا فإننا نجد لاحقاً في بيت الزهراء مَنْ يقوم بهذا الدور المساعد، ولم يكن ذلك محرّماً على أهل بيت النبي.

وفي رواية أن علياً «عليه السلام» قال بعد ذلك: (مَضَيْتَ
تريدين من رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» الدنيا)
أي ما يعينك في أمر هذه الحياة (فأعطانا الله ثواب الآخرة).
وهكذا نالت الزهراء «عليها السلام» الأمرين بصبرها
ورضاها، نالت - في الدنيا - ما كان يعينها، والخلود في تسبيحتها
المباركة التي تلهج بها ألسنة الملايين ليل نهار؛ كما نالت - في
الآخرة - المقام الرفيع. فنالت تلك التسبيحة المباركة التي
كانت وما زالت وستبقى تلهج بها الألسن عبر الزمان لتخلد
ذكرى الزهراء في تجلياتها الروحية عبر الزمان.

وإذا كان النبي «صلى الله عليه وآله» قد تخطى عن الخيار
الأول - لأنه لم يكن الأفضل - مع كونه مشروعاً، فكيف بالذين
يُرضون أبناءهم من خلال السبل غير المشروعة؟ أيمن أن
يكونوا صادقين في ولائهم للنبي وآله؟

• البناء الروحي للأبناء:

وهناك نقطة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي أن على
أولياء الأمور أن يهتموا بالبناء الروحي لأبنائهم كما يهتمون
بتلبية حاجاتهم المادية، وأحياناً بالمستوى الذي يدمر الأبناء
دلالاً بدلاً من أن ينفعهم، فيجعلهم اتكاليين، ضعفاء أمام
متغيرات الحياة، وقد يبلغون من خلال ذلك مستوى سئ من

العقوق للوالدين، كما يولون الماديات أهمية قصوى في الحياة، ويتصاعد حب الذات عندهم إلى أقصى مستوياته، بحيث يظن أحدهم أنه هو محور الوجود، وأن على الجميع أن يكونوا في خدمته! وأي دمار للشخصية بعد هذا؟

إن التربية التي تولي الجانب المعنوي عناية شديدة هي التي تعين الفتاة في حياتها الزوجية المستقبلية، إذ تكون راضية قنوعة، لا تعيش جشع المادة، ولا تستغرق في عالم الكماليات، ولا تستهويها المقارنات مع أقرانها، ولا تُرهق زوجها بطلباتها، فضلاً عن أن تدفعه للطرق غير المشروعة للارتقاء في المستوى المادي.. لأن ذلك كله من الأسباب الخطيرة التي تدمر بيت الزوجية، وتجلب الشر إليه، وقد قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ «طه: ١٣١».

لقد تخلت الزهراء عليها السلام عن سوارها والستر المضروب على باب بيتها حين علمت أن ذلك يُحزن أباهما كما في الخبر الذي رواه المسلمون في كتبهم، فقال كلمته الخالدة وهو في قمة الرضا: (قد فعلت.. فداها أبوها).. ومن هنا كانت الزهراء هي القدوة في عالم الزوجية، في رضاها ببساطة الحياة، وفي وقوفها مع زوجها في مختلف الظروف العصيبة، وفي نهوضها بمسؤولياتها تجاه أسرتها، فكانت سيدة النساء.

(٥)

بيتٌ ومحراب

بيتٌ فقيرٌ بمقاييس الثرى.. ثرىٌ بموازين الثريا.. فيه
سبّحت الزهراء عليها السلام.. وسبّح معها بعلمها وبنوها
بالغدو والآصال.. حتى تلاً لمن في السماء وحول العرش
وأزهر.. وأمسى أصحابه نجومَ سماواتٍ ازدانت بها الدنيا
وتحلّت..

روى السيوطي في الدر المنثور عن أنس قال: (قرأ رسول الله
«صلى الله عليه وآله»: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ
فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فقام إليه رجل
وقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ فقال: بيوت الأنبياء..
فقام إليه أبوبكر وقال: يا رسول الله، هذا البيت منها؟ وأشار
إلى بيت علي وفاطمة.. فقال: نعم، من أفضلها).

بيتٌ متواضعٌ في مقاييس أهل الدنيا والمادة.. ولكنه جمع
خير الخلق.. فرسولُ الله سيدُ الأولين والآخرين.. وعليُّ سيدُ
الوصيين.. وفاطمةُ سيدةُ نساءِ العالمين.. والحسنُ والحسينُ
سيدا شبابِ أهلِ الجنة.. فهل يمكن لمنطقِ الإنسان - والحال

هذه . أن ينطلق في رحاب الكلمة بكل محدودياتها ليعبر..
ويصف.. ويمجد هذا البيت بكل رحابة عطاءاته؟

في هذا البيت كان يجلس ربُّ العائلة.. محمدٌ «صلى الله عليه وآله».. مع عائلته.. عليٌّ عن يمينه.. وفاطمةٌ عن يساره..
والحسنُ والحسينُ في حجره.. يُقبلُ هذا مرة.. وذاك مرة..
يباركُهم ويدعو لهم.. ويسألُ الله أن يُذهب عنهم الرجسَ
ويطهرهم تطهيراً.

ومن هذا البيت كان يخرج النبي إلى السفر.. وبه يبدأ إذا
عاد..

في هذا البيت المتواضع.. عاشت فاطمة عند علي.. وهو لا
يملك إلا قلبه وسيفه.. وإلا علمه وإيمانه..

وفي هذا البيت طحنت فاطمة بالرحى حتى تورّمت كُفُّها..
واستقت بالقربة حتى اسودَّ صدرُها.. وكُنست حتى اغبرّت
ثيابُها.. وفيه لم يكن من أثاث الدنيا وزخرفها شيئاً ذا بال..
فقد أوصاهم من قبلُ ربُّ العائلة قائلاً: ليست الدنيا من
محمد.. ولا آل محمد.. وحفظ الآل وصيّته.. فكانت ترياقَ
صبرهم.. وزينة بيتهم..

وهو البيتُ الطاهر.. الذي طهره الله في محكم كتابه..
والبيتُ الرفيعُ الذي رفعه الله في محكم آياته.. والبيتُ الكريمُ

الذي خلد القرآن عطاءاته حيث سطر بأحرف نورانية، ومعانٍ ملكوتية مشهدة قدوم عليّ يصحبُ ابنه الحسن والحسين أولَ الصباح.. مقبلين على رسول الله.. فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم.. وقام فانطلق معهم.. فإذا به يرى فاطمة في محرابها.. وهي تترفع عن حطام الدنيا بلقاء محبوبها.. في سموٍّ روعي وتسامٍ أخلاقي، فتتسّى في تلك اللحظات النورانية ألم الجوع وتعب العطاء.

كما كان أبوها من قبلُ ينسى تورّم قدميه وهو يصلي في ساعات الليل الطويلة حتى جاء الوحي بقول الله «عز وجل»: ﴿طه، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ «طه: ١-٢».. وكما هو بعلمها علي الذي كان ينسى ألم جراحات المعارك حين يصف قدميه واقفاً بين يدي الله في صلاة الخاشعين..

إلا أن ما ساء الأب الحنون في تلك اللحظة أنه رأى بضعتَه وقد التصق بطنها بظهرها.. وغارت عيناها.. فلم يكن حالها بأفضل من حال علي والحسن والحسين.. فنزل جبريل عليه السلام وكأنه يبادر بتقديم الصورة المعنوية الحقيقية لذلك الموقف وقال: خذها يا محمد.. هنّاك الله في أهل بيتك.. خذها يا محمد واقراً.. وأسمع الخلائق.. وخذ هذه اللوحة الملكوتية.. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا

كَافُورًا.. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا.. يُوفُونَ
بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا.. وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا.. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا.. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا.. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا.. وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا.. ﴿٤٠﴾

إنه بيتُ المجد السرمدي الذي تعجز الكلمات.. إلا كلمات
القرآن الخالد.. أن ترتفع إلى معانيه السامية.. لترسم معالم
العز والفخار لآل ذلك البيت الذي لم يكن لأحد الأهلية أن
يكون أهلاً لسيد الخلق أجمعين.. سواهم.. فهو بيت الوصي..
وبيت البتول.. وليس في الإسلام بيتٌ حوى من المجد والعظمة
ما حواه هذا البيت..

ولذلك كان «صلى الله عليه وآله» إذا غزا أو سافر.. بدأ
بالمسجد أولاً.. ليجدد العهد ببيت الله.. ثم أتى بيت فاطمة
ثانياً.. ليجدد العهد ببيت آل الله.. فسلامٌ على محمد في الليل
والنهار.. وسلام على آل محمد ما بقي الليل والنهار..

(٦)

المرأة في مسيرة النبوات

للمرأة في مسيرة النبوات الدورُ الفاعل بما يتناسب مع أهم مسؤولياتها في الحياة، ووضعها الاجتماعي.

• مع الخليل إبراهيم:

ففي مسيرة الخليل إبراهيم «عليه السلام» التوحيدية، نجد أم النبي إسماعيل «عليه السلام» وهي تحتضن طفلها الرضيع في أرض قفر.. لم تكن المسألة متعلقة بصراع بين ضرّتين، بل بمسؤولية رسالية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ «إبراهيم: ٣٧».

إنَّ عليها أن تقوم لوحدها بتربية هذا الطفل كي يبلغ المستوى الذي يقول معه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ «الصافات: ١٠٢».

وهل كانت إقامة الصلاة لتتم عند البيت المحرّم، وتتمو بذور الإيمان في أفئدة الناس لولا نهوض السيدة هاجر بدورها

في تربية ابنها بذلك المستوى المتقدم من التربية الإيمانية والروحية؟

• مع الكليم موسى:

هكذا نجد المرأة حاضرة في قصة النبي موسى «عليه السلام» في شخصية الأم التي أعيد إليها ولدها، لتحضنه وليداً مباركاً، لا لتكون مرضعة له فحسب، بل لتكون الصناعة الإلهية لموسى من خلالها: ﴿وَلِتُضْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ «طه: ٣٩»، حين تؤسس فيه عناصر الإيمان لينطلق من قصر فرعون بكل ما يمثله من طغيان و جبروت ، فيكون نبياً حاملاً رسالة الله «سبحانه وتعالى»، ومجدداً لدعوة جده إبراهيم.

• مريم والمسيح:

ثم نجد امرأة عمران واشتياقها لوليد مبارك ينفخ الروح في ذلك المجتمع البائس الذي ابتعد كثيراً عن نهج التوحيد، وانغمس في الشهوات، فنذرت ما في بطنها مُحَرَّراً، ليكون عبداً خالصاً لله «عز وجل». ولكنها اصطدمت بواقع أن الوليد كان أنثى.. وليس الذكر كالأنثى في مساحة الحركة الاجتماعية وطبيعة الدور المناط بكل منهما.

وما دَرَّت هذه السيدة الجليلة أن هذه الوليدة المباركة - مريم - ستكون أمّاً لذلك الولد الذي تمنّته من منطلق رسالي، لا كما

تتمنى الأمهات أن يكون لهن الامتداد في هذه الحياة بولد
يشرفها في الدنيا، وحسب.

فهل كانت طبيعة مريم الأنثوية عائقاً أمام سموها الإيماني
والروحي؟ لقد انبهر بها نبي ذلك الزمان لذا ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾
«آل عمران: ٢٨».

وهكذا كانت الطاهرة المصطفاة مريم، سيدة أخرى لها
ذلك الحضور القوي في تنشئة وليدها تنشئة هيأته ليكون نبيا
هو السيد المسيح.

• مع سيد المرسلين:

ومع نبينا الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» في المرحلة
الأولى الأصعب من مسيرة الرسالة كانت السيدة خديجة
«عليها السلام»، التي احتضنت الرسالة، فكانت خير معين..
لقد آمَنت به حين كفر به الناس، وَأَوَّتَه إِذ رَفَضَهُ النَّاسُ،
وَصَدَّقَتْهُ إِذ كَذَّبَهُ النَّاسُ.. ثم رُزِقَ منها بمولودةٍ غَدَتِ سيدةَ
نساء العالمين.

وبرحيل أم القاسم.. خديجة الطاهرة.. أحست الزهراء
«عليها السلام»، وهي ما زالت تلك الطفلة الصغيرة، بعظم
المسؤولية، فلم تكن لتسمح بأن يشعر أبوها في خضم صراعه

المتواصل مع الشرك بفرار ذلك الرحيل المؤلم، فأضحت له بمثابة الأم، بكل ما للأمومة من عطاء روي وزخم معنوي ورعاية حانية ومشاعر فياضة..

وفي المدينة، كان لها أن تنتقل إلى بيت الزوجية، لتضيف إلى مسؤوليتها تجاه أبيها، مسؤولية الزوجة لرجل بحجم علي «عليه السلام»، ومسؤولية الأم لولدين شاء الله «تعالى» أن يكونا سيدي شباب أهل الجنة.

ولم تهمل في خضم مسؤولياتها الرعائية لأب وزوج وأبناء، مسؤولياتها الإيمانية والروحية، فكانت العابدة الزاهدة، الصائمة القائمة، فأشبهت أباه الذي ما كان يرتضي لنفسه أن ينقطع عن الصلاة ولو تورمت قدماه.

وكذلك كانت الرسالة حاضرة في كل حياة الزهراء «عليها السلام».. احتضنتها صغيرة، ورعتها شابة، ودافعت عنها مكلومة برحيل أبيها، فأقبلت إلى مسجد أبيها، في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فتيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أتت أنه أجهش لها القوم بالبكاء، فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نسيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول

اللَّهُ، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، وخطبت خطبتها المشهورة.

وما أمهلها الزمان كثيراً، فما أسرع أن ارتحلت عن هذه الدنيا التي لم يتعلق قلبها بها لحظة، فخرس بذلك المسلمون خسارة كبيرة بعد خسارتهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقد كان كل ذلك الفيض الزاهر لفاطمة وهي في ريعان شبابها حتى غدت سيدة نساء العالمين، فماذا لو كتب لها أن تمتد بها الحياة سنوات وسنوات؟

• الزهراء قدوة الفتيات:

إننا نريد لفتياتنا أن يتعلمن من سيرة الزهراء «عليها السلام» رحابة الإيمان وطهارة النفس وسمو الأخلاق وعفاف الروح وحياء القلب والجوارح، لا أن يحبسوا ذكراها في دهاليز المأسى ومغاليق الأحزان، أو أن يحولوها إلى أيقونة فوق بشرية ينالها التقديس وتترأى لهم في الأطياف، ولا يكون لسيرتها المليئة بصور السمو الإنساني الحضور الحي في مفردات الحياة.

(٧)

اعلموا أني فاطمة

أيها الناس اعلموا أني فاطمة و أبي محمد.. أنا فاطمة التي عشت يَتَمَّ الأم ولم أتجاوز الخامسة، وأيُّ أمٍّ تلك التي فقدتُ؟ إنها خديجة.. ذات القلب الكبير الذي احتضنت به كل معاناة أبي في دعوته الناس إلى دين الله.. فكانت سلواه في محنته.. لتعطيه الطاقة من طاقتها.. والصلابة في الحق من صلابتها..

وكانت يده التي تجود في عطائه.. ليعين بها الضعفاء.. ويفك بها أسر المستضعفين.. وينشر بها كلمة التوحيد.. وكانت عينه التي ترقبه في أيام الشدة والمواجهة.. لتخفف عنه معاناته.. وتشد من أزره.. وتفيض عليه من حنانها..

فكانت له الأم والزوجة والنصير.. حتى إذا ذكرت عنده ليلة أرادوا إدخالي على علي قال: (خديجة! وأين مثل خديجة؟ صدقتني حين كذبتني الناس، ووازرني على دين الله وأعانني عليه بمائها، إن الله «عز وجل» أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب).

جزاءً لصبرها على كل ذلك الصخب الذي تحملته في سبيل الله.. وكل ذلك النصب والتعب الشديد الذي قاسته نصرة لدين الله.

أيها الناس اعلّموا أنني فاطمة و أبي محمد.. أنا فاطمة يتيمة هذه السيدة العظيمة التي أقرأها ربُّها السلام بوحى منه حملة أمينُ الله جبريل.. وبشّرها أنها من سيداتِ نساء أهل الجنة.. فهل تدركون عن أي يتمّ أتحدث؟

أيها الناس اعلّموا أنني فاطمة و أبي محمد.. أنا فاطمة التي فتحتُ عينيّ طفولتي على أب مكلوم بفقد أعظم إنسانة نصّرتة.. فعاهدتُ ربي أن أكون له الأم التي لا تنام حتى ترى ابنها يهنأ في منامه.. فهل كان أبي ينام في تلك الليالي.. تفكراً وتعبداً.. فيهنأ، كي تذوق عيني لذيق المنام من بعده؟

وعاهدتُ ربي أن أكون له الناصرة في دعوته، في شعاب مكة وبطاحها، حتى إذا رأيتُ أشقى قريش قد جاء بفريث جزورٍ وسلاها فألقاه على أبي وهو ساجد، والقوم قد أخذ منهم الضحك كل مأخذ، سارعتُ إليه حين خشي أصحابه فعلَ شيءٍ، فطرحتُ الفريثَ عن أبي، وأقبلتُ على أشراف قريش أعيبتهم قبيح ما فعلوا وألبستهم ثوب الخزي والعار.

وعاهدتُ ربي أن أكون له الناصرة في دعوته، في يثرب وما

سواها، حتى إذا رأيته مصاباً في أحد، قد شجَّ في وجهه، وأدّمي
فوه إدماءً، لم أملك إلا أن فزعتُ وصحتُ كما تنزع الأم علي
ابنها المصاب، وجعلتُ أمسحُ الدم وأقول: اشتدَّ غضبُ الله
على من أدّمي وجهَ رسول الله.. ولما رأيتُ أن الدم لا ينقطع،
أخذتُ قطعة حصير فأحرقْتُها حتى صارت رمادا ثم ذروته
على الجرح فاستمسك الدم واستكان الجرح.. ولكن قلبي لم
يستكن ولم يهدأ.. فقد كانت عينا رسول الله تجولان في أرض
المعركة أسفاً على حال المسلمين، وحُزناً على المصاب العظيم.
وفي الخندق.. حين كان الجميع يشارك في الحفر.. وأبي..
رسولُ الله.. محمد.. معهم يحفر.. ويحمل الحجارة.. ويشد
من أزهرهم.. ويُفيضُ عليهم من همته.. جئته بكسرة من
خبز.. فرفعتها إليه فقال: ما هذه يا فاطمة؟ قلت: من قرص
اختبزته لابني.. جئتكَ منه بهذه الكسرة. فقال: يا بُنَيَّة: أما
إنها لأوّل طعام دخلَ فمَ أبيك منذ ثلاثة أيّام! أأسمَحُ لدموعي
أن تهمل فأكسر قلبَ أبي؟ أم أختزنُ الألم في قلبي وأسكنُ
دموعي في محاجرها؟ وآليت على نفسي الصبر.. واستلهمتُ
من أبي القوة.. فشددتُ من عزمه ودعوتُ الله أن يكتبَ له
النصر والفرج.

أيّها الناس اعلّموا أنّي فاطمة وأبي محمد.. أنا فاطمة التي
لم أقبل على الدنيا.. ولم تكن لي فيها رغبة.. ترهّداً وقناعة..

ولكنني كنت زوجةً يحبُّ زوجها أن ينظر إليها وقد تزينت
وهيأت له مسكنه.. فأخذتُ شيئاً مما أغنمنا الله إياه من
أرض خيبر، فلبست قلادةً وقرطين ومسكتين، وعلقت سترأً
ملوناً على الباب.. حتى إذا رأيت في وجه أبي الكراهة لذلك
سارعتُ فتزعتُ ما لبست، وما علقت.. فبعثت به الى أبي وهو
على منبره.. وقلت لرسولي إليه: اجعل هذا في سبيل الله. فلما
أتاه الرسول قال أبي: قد فعلت، فداها أبوها.. قد فعلت فداها
أبوها.. قد فعلت فداها أبوها.. ما لآل محمد وللدنيا؟ فإنهم
خلقوا للآخرة وخلقوا الدنيا لغيرهم.

أيها الناس اعلّموا أني فاطمة وأبي محمد.. أنا فاطمة التي
أقبلتُ أمشي كأنّ مشيتي مشيته، فقال لي أبي: مرحباً بابنتي،
ثم أجلسني عن يمينه، ثم أسر لي أن جبرئيل كان يعارضه
القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضه العام مرتين، وأنه لا يراه
إلا قد حضر أجله.. فبكيت.. بكيت لأنه أبي.. وما أعظم فقد
الأب.. وبكيت لأنه رسول الله الذي يفقده تفقد الدنيا بركاتها..
وبكيت لأنه صاحب القلب الكبير الذي طالما احتضنني وأحبنى
كما لم يحب أحداً.. فكنت آخر من يفد عليه إذا أراد السفر..
وكنت أول من يفد عليه إذا رجع من السفر.. فإذا رأيته قام
لي وقد تهلل وجهه سروراً لرؤيتي.. فيقبلني ويحتضنني يشمُّ
في ريح خديجة.. وطيب الجنة.. ثم أسر لي ثانية أنني سيدة

نساء أهل الجنة.. وأنتي أولُ أهل بيته لحوقاً به.. فدخلني من السرور ما دخلني.. فلن يطول عهدُ الفراق.. وسأجتمع به من جديد عند رب رحيم غفور.. فابتسمتُ لذلك وأسلمتُ أمري إلى الله.

أيها الناس، اعلّموا أني فاطمة و أبي محمد.. أقول عوداً وبدواً ولا أقول ما أقولُ غلطاً ولا أفعل ما أفعلُ شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزى إليه «صلى الله عليه وآله».

ثم ابتسمت فاطمة..

إلحاحٌ عجيب في عينيَّ أم المؤمنين وهي ترقب الموقف..
شغفاً لتكشف سرَّ تلك التتمات التي تجلّت من الفم الزاكي..
فاخترنتها أذنٌ واعية.. وتحدّرت من مآقيها ^(١) حبات كأنها
الجمان المنضود..

لم تخطئ مشيتها مشية رسول الله.. هكذا كان وصّف أم
المؤمنين لها.. وهي ليست المرة الأولى التي تشهد فيها مشية
الزهراء.. ولكن لا بد أنها لاحظت شيئاً في عينيَّ رسول الله
وهو يتابع تلك الخطوات.. فارتسمت الصورة في عقلها.. (كأنَّ
مشيتها مشية رسول الله).. وكأنني به «صلى الله عليه وآله»
يُحدّث نفسه (فداك أبوك يا أم ريحانتي) ..

ولم تكن خطواتها.. فقط.. كخطوات أبيها.. وهي (أم أبيها)
كما كان يحب «صلى الله عليه وآله» أن يناديها.. بل كانت أشبه
الناس سمّاً.. ودلاً.. وهدياً ^(٢) برسول الله..

١. المآقي والآماق: أطراف العين.

٢. السمّ والدل والهدي: الهيئة والطريقة وحسن الحال.

وكانت إذا دخلت على رسول الله.. «صلى الله عليه وآله».. قام إليها.. بعظمة شأنه وجليل مقامه.. فقبلها.. وهو يشم فيها روح الجنة ورياحينها.. ولا يرضى لها مجلساً إلا مجلسه.. إعظاماً لشأنها.. وإجلالاً لمقامها.. ولم يكن ليفعل ذلك مع سواها.. لأن فاطمة.. في عقل أبيها.. وفي قلبه.. شأناً آخر.. لا يعرف سرّه إلا الله..

ما الذي دعا النبي ليطلب فاطمة في هذا الوقت بالذات؟ وقد أخذ منه المرض كل مأخذ.. والحمى لا تكاد تفارق جسده الشريف.. وحوله نساؤه.. يخدمونه.. ويعلنه.. فلم يطلب من إحداهن أن تقترب منه ليسارّها بشئ.. ولم يفصح لهن جهاراً عما يجيش في مكنون صدره.. ثم إن فاطمة لم تغب عنه كثيراً.. فما الأمر الملح الذي طلبها لأجله.. ولا يقبل التأجيل؟! انكبّت فاطمة على أبيها.. بعد أن حيّاها وهو ينتزع ابتسامة طالما اعتادت على رؤيتها وهو يحييها.. (مرحباً بابنتي).. انكبّت هي عليه.. وقبلته.. ولم تكن قد عهدت ذلك في لقياءه.. فقد كان المرض يغالبه.. ولم يعد قادراً على أن يقوم كما كان يفعل ليحيي حبيبته.. ويجلسها مجلسه..

وأقبلت (أم أبيها) بكلّها عليه.. وحنانها يفيض في المكان.. ليبعث في اللقاء دفئاً ترسم معالمه تلك الأنامل النحيطة التي

طالما مسحت الدم والتراب عن وجه رسول الله.. في مكة حين كانت ترشقه قريش بأحجار الجحود.. وفي المدينة حين كان يعود أبوها من أرض المعركة منتصراً.. وتلك النظرات الحانية التي طالما ذكّرتّه بحنان خديجة.. (وأين مثل خديجة؟! صدّقنتني حين كذّبتني الناس، وأعانتني على ديني ودنياي بما لها).. هكذا كان يذكرها «صلى الله عليه وآله»..

تغيّر وجه الزهراء.. ولفّ الحزنُ قسماته.. وجادت عيناها غيثاً منهملاً.. وهي تعي ما يقوله أبوها.. لقد كانت كلماته حاسمة.. (كان جبريل يعارضني بالقرآن كل عام مرة.. وإنه عارضني في العام مرّتين.. ولا أراني إلا قد حضر أجلي.. فاتّقني الله واصبري.. فإني نعم السلف أنا لك)..

ساعد الله قلبك يا حبيبة المصطفى.. فأني مصاب بعد هذا؟! وكأنني بها وهي تستذكر الساعات الأخيرة لرحيل أمها.. خديجة.. ولم تكن فاطمة إذ ذاك قد تجاوزت الخامسة.. من سنّي عمرها.. ولكنها كانت تفوق ذوات الخمسين في وفرة عقلها وفي ثقل إحساسها بمسئولياتها.. ولذا كانت أم أبيها)..

حينئذ.. كان المصطفى يلفّها بعظيم رأفته ورحمته.. فيملأ فراغ أمها الراحلة عن هذه الدنيا الفانية.. أما اليوم.. فمن ذا

يمكنه أن يسد مسدده؟ وأسلمت الزهراء نفسها للبكاء.. (وا كرباه.. وا كرب أباه)..

وما لبث النبي أن جذبها إليه ليسارها من جديد.. (إنك أول أهلي لحوقاً بي.. ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟).. فأخذت بغضوية تكفك دموعها وهي تبتسم.. بعد ذلك الحزن الشديد.. ويتهلل وجهها فرحاً لعظيم ما سارها به.. فإن جوار أبيها أحب إليها من هذه الدنيا وما فيها.. وهل تعلقت فاطمة.. يوماً.. بزخرف الدنيا وزبرجها؟!!

نهضت بضعة أبيها تستشرف ما تخبؤه لها الأيام القادمة التي ستكون حتماً مليئةً بالأحداث.. وأحزانها أكثر من أفراحها.. وما لبثت أم المؤمنين أن نهضت مسرعةً لنهوضها.. ثم بادرت بسؤالها.. والعجب قد أخذ منها مأخذه.. (ما هذا الذي سارك به رسول الله فبكيت، ثم سارك فضحكت؟! أخصك رسول الله بحديثه دوننا ثم تبكين؟!)..

حقاً إنه أمر عجيب.. إلا أنه سرٌّ خصّه بها أبوها.. وعليها أن تكتمه.. ولا تتحدث به ما دام حياً.. إنه يكشف لها هي وحدها شيئاً من أسرار القدر.. (ما كنت لأفشي على رسول الله سره).. بهذا الاختصار أجابت الزهراء.. وتابعت مسيرها نحو ما رسمه القدر لقادم أيامها.. حتى إذا حلَّ أمرُ الله..

واختار نبيّه لجواره.. عادت أم المؤمنين لتسأل من جديد..
(أرأيت حين أكببت على النبي فرفعت رأسك.. فبكيت..
ثم أكببت عليه.. فرفعت رأسك فضحكت.. ما حملك على
ذلك؟)١٩)..

أمّا الآن فنعم.. ولو أفشت السر من قبل لكانت بذرة^(٣)..
وأخذت الزهراء «عليها السلام» تحكي لأم المؤمنين سر تلك
الدموع.. ثم سر تلك الابتسامة.. التي ما عادت تعرف إلى
نفرها طريقاً مذ أن ارتحل عنها أبوها.. وتركها تنتظر أيام
اللقاء من جديد.. وهي قلائل.. في مقعد صدق عند مليك
مقتدر^(٤)..

-
٣. بذرة: ورد في الحديث أن الزهراء بررت امتناعها عن البوح بالسر
لئلا تكون بذرة، والبذرة هي التي تفضي بالسر ولا تستطيع كتمانها.
٤. توفيت فاطمة الزهراء «عليها السلام» بعد أبيها بخمسة وسبعين أو
خمسة وتسعين يوماً أو ستة أشهر.

(٩)

رسالة إلى الزهراء عليها السلام

قال «تعالى»: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ «التوبة: ١٩».

من الضروري أن لا نسترسل في التعامل مع أمورنا دون مراجعة ومحاسبة وتصحيح، ومن المهم إثّر ذلك أن نعيد ترتيب الأولويات في حياتنا، وأن نبحث عن فقه الأولويات، ونخرج أنفسنا من «الخربطة» التي يقع فيها بعض المتديّنين نتيجة «اللخبطة» المفاهيمية.

فقد يتم التركيز على السطح وتنسى العمق والأهداف الكبرى، أو ما هو أهم وأولى بالمعيار الإلهي، ففي الخبر أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» نظر إلى الكعبة فقال: (مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله!) والله للمؤمن أعظم حرمة منك، لأن الله حرّم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يُظن به ظنّ السوء).

شهد عالمنا الإسلامي وما زال يشهد الكثير من الحروب

والمآسي والأوضاع المأزومة التي تترتب عليها الكثير من التبعات المتعلقة بالأوضاع الإنسانية، ومع هذا نجد البعض تغيب عنه الأولويات في مسألة الإنفاق المستحب والتبرعات.

العراق على سبيل المثال عانى من الحروب منذ سنوات.. مئات الآلاف من الأرمال والأيتام.. ملايين الفقراء.. مئات الآلاف من المهجرين وممن يسكنون في بيوت غير آمنة، وفي ظل خدمات أساسية شبه غائبة كالماء والكهرباء.

في مثل هذا الظرف يتوجّه البعض ويعلن عن جمع الأموال لترميم بعض المقامات والمراقد! مقامات مجهزة ومزينة وتؤدي المطلوب وزيادة.. وبعضها لم يثبت أن هناك أحداً مدفوناً بها.. بل بعضها لم يثبت أن صاحب المقام قد ولد في يوم ما.. واعتمد على الأحلام في تشييدها!

أيهما أولى.. إغاثة الموارد التي ذكرناها، أم ترميم هذه المقامات وتزيينها وتذهيبها وتوسعتها؟

إذا كان حب أهل البيت «عليهم السلام» على وجه الخصوص هو الدافع لهذا العطاء، فليكن عطاؤك لذريّتهم من الأيتام والأرمال والفقراء والمهجرين.. إذا كنت تستشكّل من التصدق عليهم فليكن عطاؤك هدية.

لا أريد أن أفرّق هنا بين المحتاج من ذريّتهم وبين غيرهم..

ولكن أقول إذا كانت دافعية البعض للعطاء بهذه المحدودية،
فليكن.. ومن خلاله يمكن إنقاذ أسر بكاملها من الآثار
الخطيرة للفقر.

لو كان بإمكاننا - اليوم - إرسال رسالة وتلقي الجواب من
مولاتنا فاطمة الزهراء «عليها السلام»، وسألناها:

مولاتي.. يا صفاء الروح.. يا طهر القلب.. يا نسيمَ
الحياة.. يا مثارَ الوعي.. يا قبسةَ الحق.. يا يقظةَ الضمير..
يا وثبةَ العدل.. يا عبَقَ الجنة.. يا سيدةَ النساء.. في خضمِّ
ما تعيشه المنطقة من حروب ومأس إنسانية وهجرة، أيهما
الأولى والأجدر بالإنفاق: ترميمُ وتزيين المقامات.. أم سدُّ
رمقٍ جائع.. وزرعُ البسمةِ على شفتي يتيم.. وتحصينُ أرملة..
وتأمينُ مسكنٍ لمهاجر.. وتوفيرُ مصدرٍ رزقٍ لأسرةٍ مُعولة؟

يا من أثرت الجوعَ وأطعمت المسكينَ واليتيمَ والأسيرَ، لا
أخالِكِ ترضينَ بغيرِ الاقتداءِ بهذا الإيثار الذي خلده كتابُ الله
العزیز في سورة الدهر، فلتِ بذلك المقام الرفيع أبداً الدهر.

معالم الشخصية المؤمنة في خطبة الزهراء

جاء في خطبة الزهراء «عليه السلام»: (فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنمأة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية).

• صورة متكاملة:

قد نعالج هذه العناوين التي ذكرتها السيدة الزهراء «عليها

السلام» كلاً على حدة، وسنخرج بنتائج تتعلق بكل عنوان منها. ولكننا لو قرأنا هذا المقطع كوحدة واحدة، وجمعنا النتائج الإيجابية التي ذكرتها الزهراء «عليها السلام» فستكون معالم الشخصية المؤمنة كالتالي:

١. إنسان ينطلق في الحياة من خلال قاعدة إيمانية توحيدية، تدفعه إلى التوحيد في العبودية، والإخلاص في الربوبية، بحيث يؤمن أن المشرع الحقيقي هو الله «سبحانه وتعالى»، وأن هذه التشريعات لم تأت عبثاً، بل جاءت لتصالح حاله: (فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك... وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية). والانطلاق من هذه القاعدة تجعله ملتزماً بأوامر الله ونواهيه فيكون كالتالي:

٢. إنسان متواضع لئلا الجانب، طاهر القلب: (والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر).

٣. يترفع عن الماديات فلا تملكه، ويملك المال فلا يبخل به: (والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق).

٤. حريص على أن يكون مخلصاً لله في أعماله الصالحة، بعيد عن الرياء وتوظيف الدين لخدمة مصالحه الشخصية: (والصيام تثبيتاً للإخلاص).

٥. غيور على الدين فيسعى لتقوية مواقفه، ويوظف العبادة

الجماعية لتكون عنوان عز للإسلام ووحدية بين المسلمين:
(والحجّ تشييداً للدين).

٦. العدل بالنسبة إليه أساس الحياة، وبه تنتظم العلاقات
ويسود الأمن في المجتمع، وتحقق التنمية بتعاقد جهود أفراد
المجتمع حكماً ومحكومين: (والعدل تنسيقاً للقلوب).

٧. مسلم يؤمن بالموقع المتقدم لأهل بيت النبوة بالاصطفاء
الإلهي في المرجعية الدينية والحاكمة، لما امتازوا به من
صفات تجعل الانقياد لهم عن طاعة وتصديق سبيلاً للحفاظ
على الكيان الإيماني الواحد والقوي للأمة: (وطاعتنا نظاماً
للملة، وإمامتنا أماناً من الفرق).

٨. وهو على أهبة الاستعداد للتضحية بالجهاد في سبيل
الله، لأن الدين عنده فوق المصالح الشخصية، وهو لا يرضى
أن يرى قوى الكفر والنفاق متغلبة على الإسلام وفي موقع
الاستعلاء عليه: (والجهاد عزّاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر
والنفاق).

٩. وهو يستعين على ذلك كله بالصبر ويتطلع إلى الآخرة
حيث ينتظره الأجر الجزيل بلا حساب جزاءً حسناً لصبره:
(والصبر معونة على استيجاب الأجر).

١٠. ثم إنه يشعر بالانتماء القوي إلى مجتمعه، فيعمل

على نشر المعروف بالحكمة والموعظة الحسنة، ليفلق بذلك أبواب الشر عنه، فإن الخلل الذي يصيب المجتمع سيعود عليه شخصياً بالشر، كما أنه يدرك أن الأمر بالمعروف جزء من مسؤولياته ومن معالم شخصيته التي صنعها الإسلام: (والأمر بالمعروف مصلحة للعامة).

١١. وهو البار بوالديه عرفاناً للجميل، وخوفاً من عقوبة الله: (وبرّ الوالدين وقاية من السخط).

١٢. والواصل لرحمه بأنواع الصلة، لما فيها من الخير له: (وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنمأة للعدد).

١٣. إنه يُدرك أن القانون لا بد أن يسود وأن يأخذ مجراه بحق من يخرج عليه، لأن في العقوبة تأديب وحياة وصلاح للمجتمع وضمانة من اختلال الأمن: (والقصاص حقناً للدماء).

١٤. إنه يتحمل مسؤولية كلماته ووعوده، فحينما ينذر لله، يفي بنذره، أو حينما تترتب عليه عقوبة مالية تعويضية أداها، كل ذلك طلباً للمغفرة: (والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة).

١٥. كما أنه الأمين في التعاملات التجارية، الذي لا يفصل الدين عن دنياه: (وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس) لأنه الربح المحرم ضرر للمجتمع، وسيعود أثر هذا الفساد عليه.

١٦. المتجنب للمسكرات احتراماً لعقله، ولأنها لا تجلب إلا الفساد بأنواعه، وتُسقط الإنسان في مهاوي الرذائل: (والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس).

١٧. عفيف اللسان فلا يتهم الناس بالباطل خوفاً من سلب الرحمة الإلهية عنه وعن المجتمع: (واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة).

١٨. عفيف اليد فلا يمد يده على مال الغير أو المال العام سرقةً أو اختلاساً: (وترك السرقة إيجاباً للعفة).

هذه هي معالم الشخصية الإيمانية التي يصنعها الإيمان والالتزام بالعمل الصالح كما أراد الله «سبحانه»، وليقيم كل منا حين يعتبر نفسه من شيعة الزهراء ويستحضر سيرة الزهراء إلى أي مدى نجح في صناعة شخصيته وفق هذه المعالم، كما أراد الله، وكما بينت فاطمة «سلام الله عليه».

(١١)

الزهاء عليه السلام .. وتر في غمد

الأديب المسيحي الأمريكي المولد، واللبناني الأصل: الأستاذ سليمان كتاني، «ت٢٠٠٤» يمثل نموذجاً من الكتاب الذين تجاوزوا إطار المعتقد، ليتفاعلوا مع الحقائق والشخصيات كما هي. وحين قرأ السيرة النبوية وسيرة أهل بيته الكرام وجد في أصحابها نماذج تستحق أن تُقدّم للإنسانية بصورتها المشرقة، بعيداً عن تأثيرات الانتماء والتمايز.

في عام ١٩٦٧ أعلن النجف الأشرف عن مسابقة عالمية للكتابة في أمير المؤمنين «عليه السلام»، اشترك فيها عشرون مؤلفاً، فحاز الكتاني على المرتبة الأولى عن كتابه «الإمام علي: نبراسٌ ومتراس».

وبعد عام واحد اشترك في المسابقة الأخرى التي أعلنت عنها كربلاء حول الزهاء «عليها السلام»، وحاز مجدداً على المرتبة الأولى، وصدر كتابه «فاطمة الزهاء: وتر في غمد»، وقد أبدع في تقديم صورة الزهاء «عليها السلام» في طهرها ومقامها الشامخ.

انطلق الأديب الكتاني - في النص التالي - من صورة الطهر
والعفاف لدى السيدة مريم البتول ليقدّم صورة أدبية رائعة
لطهر وعفاف السيدة فاطمة الزهراء، ليمثّلا بذلك أيقونتان
لتقوى المرأة.

إِيَّه فاطمة!

يا ثَغْرًا تحلّى بالعفاف، فطابَ رضابُه..

ويا عُنُقًا تجمّل بالمكرّمات، فدكا إهابُه..

لقد عبّقَ خطُّ وَصْلِكَ ببنتِ عَمْرانَ، يا ابنةَ المصطفى..

فتلك مريمٌ، ما فرّشت الأرض إلا من ثَنَفِ الزنابق..

وأنتِ النفحةُ الزهراءُ، ما نصّتِ الطيّبَ إلا من مناهلِ

الكوثر..

والخطُّ خطُّ الطهرِ والعفافِ، ما زنرَ الأرضَ إلا خفّف

إرهاقها..

ولا عانقَ الأجيالَ إلا لَوْنُ آفاقها..

والأرضُ - لولا هذا الأثيرُ يغمرُها - تأجّن..

والزمنُ - لولا هذا العبيرُ يرشّفه - يأسن..

يا بتولُ، يا أمَّ أبيك..

لقد كانت النبوةُ طِفْلَكَ البكر..

داعبتيه بيد.. قبلتيه بفم.. عانقتيه بعين.. رافقتيه
بقلب.. حضنتيه بروح.. ضممتيه بشوق..
فاشتعلت بين حناياك أشواق السماء..
والتهبت في محجريك أثقال المعانى..
لقد ذاب التراب، في المصهر، يا ابنه الجنة..
هكذا - يا ابنة أبيك - أصبحت الوصية..
يا طيب الأمومة.. يا منتهى العفة.. يا طهارة المردن^(١)..
يا نحيلة..

أي فتى هو فتاك^(٢)؟

ما اندغمت في رحابه إلا كما يندغم النور في كأس
شفيف..

يا عناق الحب.. يا وُصلة العمر.. يا امتزاج المسك بالعنبر..
يا اعتصار الشوق من قلب العُفر^(٣)..
يا أم ريحانتين جسداً أشواق النبوة.. يا لبنة البقيع..
يا كبرياء النفس في عنفوان الجفر..

١. المردن: المغزل.

٢. يبدأ بوصف علاقتها بزوجها.

٣. العفر: شدة الشوق.

أَيَّةُ دَمْعَةٍ لَيْسَ لَهَا أَنْ تُحْرِقَ مُقْلَتَيْكَ^(٤) ؟
وَأَنْتَ فَوْقَ ضَرْيَحٍ، ثَوَى فِيهِ مُخْمَلُ الْكَفِّ، وَحَنُوءُ الْقَلْبِ،
وَرَنُوءُ الْعَيْنِ، وَهَلَّةُ الْجَبِينِ، وَدَفْقَةُ الْمَبْسَمِ، وَهَالَةٌ كَالْدِيمَةِ
مَوْصُولَةُ الْعَبَقِ بِغَارِ حِرَاءٍ.. وَمَسْحَةٌ كَالنُّورِ فِيهَا كُلُّ الْعِزَاءِ..
وَذَابَ حَبْرُ الْوَصِيَّةِ يَا أَنْوَقُ^(٥) ..
وَبَقِيَتْ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ.. يَا عَدِيلَةَ مَرْيَمَ.. يَا قِيثَارَةَ
النَّبِيِّ..
يَا ثَوْرَةَ اللَّحْدِ.. وَيَا وَتَرًا فِي غَمْدِ .

٤ . يبدأ بوصف حزنها على وفاة أبيها .

٥ . أنوَق: طائر الذي يعيش على القمم .

«المسئولية» في خطبة الزهراء عليها السلام

جاء في خطبة السيدة فاطمة الزهراء «عليه السلام» بعد أن ذكّرت الله حمداً وتعظيماً وتمجيذاً، ثم عرّجت على نبوة أبيها محمد «صلى الله عليه وآله» والهدف من بعثته والمسؤوليات التي نهض بها، أنها التفتت إلى أهل المجلس وقالت:

(أنتم عباد الله نُصِبُ أمره ونهيه) فأنتم واقفون أمام أمر الله ونهيه، وتقع عليكم مسؤولية طاعته في ذلك.

(وحمله دينه ووحيه) المسؤولية الثانية الملقاة على عاتقكم هي المسؤولية الإيمانية، فلا تفرّطوا في هذا الدين، ولا تتخلوا عن منهجه وتعاليمه.

(وأمناء الله على أنفسكم) المسؤولية الثالثة أن تحفظوا أنفسكم مما يلحق بها ضرر المفسد والنتائج المترتبة عليها في الآخرة، تماماً كما يحفظ الإنسان المسؤول الأمانة التي تكون عنده.

(وبُغَاؤُهُ إلى الأمم) والمسؤولية الرابعة أن تبَلِّغوا رسالة

الله إلى الأمم ولا تكتفوا بأن تحققوا الخير لأنفسكم.

(وزعيمٌ حقٌّ له فيكم، وعهدٌ قدَّمه إليكم، وبقيةٌ استخلفها عليكم) والمسؤولية الخامسة مسؤوليتكم تجاه القرآن الذي تركه النبي «صلى الله عليه وآله» خليفة وقائداً وهادياً، وأخذ عليكم العهد بذلك. فلا تحوّلوه إلى مجرد كلمات تُتلى بلا تطبيق، ولا تقرّغوه من مضامينه، ولا تجعلوه مجرد كتاب للبركة، أو لطرد الجن والشياطين، أو للحفاظ من اللصوص والحوادث.. إنه القائد الذي تسيرون خلفه، والمنبع الذي تستقون منه عناصر إيمانكم، وتتعلمون من خلاله شريعتكم، وتقتبسون منه الحكمة في الحياة.

(كتابُ الله الناطق، والقرآنُ الصادق، والنورُ الساطع، والضياءُ اللامع، بينةٌ بصائرُه، منكشفةٌ سرائرُه، متجليةٌ ظواهرُه) فلا هو بكتاب الغاز ولا طلاس، ولم ينزل بلغة رمزية أو بلسان تجهلونه، وقد أكدت آياته مراراً وتكراراً أنه نزل بلسان عربي مبين واضح مفهوم. وإذا كنا نعيش اليوم شيئاً من الغربة عن اللغة العربية، فإن قليلاً من الاطلاع يحقق لنا معرفة ثرية بكتاب الله سبحانه.

(مغتبطةٌ به أشياءه) فإن حملتم القرآن والتزمتم به وكنتم من شيعته، فإن نصيبكم الغبطة والسرور.

(قائدٌ إلى الرضوان أتباعه، مؤدٌّ إلى النجاة استماعه، به
تُنال حُجُجُ الله المنوَّرة) فمن أراد الحجة والدليل الواضح على
إيمانه ودينه، فإن القرآن سيعينه على ذلك.

(وعزائمه المفسَّرة) ومن أراد معرفة أوامر الله تعالى
والغاية منها، فعليه بالقرآن.

(ومحارمه المحذَّرة) ومن أراد أن يعرف محارم الله التي
حذَّر منها وبين آثارها، فالقرآن سيعرِّفه بها.

(وبيئاته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة،
ورُخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة) فهي مرجعية شاملة
ترسم معالم الدين والأخلاق والحكمة والشرعية في الفرائض
والفضائل والرخص التي ترفع عن الإنسان الحرج.. هذه
هي حقيقة موقع القرآن في مرجعيته الإيمانية والتشريعية
والأخلاقية، ولكن أكثر الناس عزفوا عن ذلك فتخبَّطوا في
فهم حقيقة الدين ومعالم شريعة الإسلام، فشرقوا وغربوا
وأضاعوا معالم الطريق.

